

التفسير المختصر - سورة طه (٢٠) - الدرس (١٦-٥٥) : تفسير الآيات ٦٣-٥٥ ،القدوة الحسنة

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ١٩٩٥-٤-٢٤

### بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين والصلوة والسلام على سيدنا محمد الصادق الوعد الأمين:  
اللهم.. لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم.

اللهم.. علمنا ما ينفعنا، وانفعنا بما علمتنا، وزدنا علماً وأرنا الحق حقاً وارزقنا أتباعه، وأرنا الباطل باطلاً وارزقنا اجتنابه واجعلنا ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه، وأدخلنا برحمتك في عبادك الصالحين...

أيها الأخوة المؤمنون:

لازلنا في قصة سيدنا موسى عليه الصلاة والسلام التي وردت في سورة طه، وصلنا إلى قوله تعالى:

﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى﴾ (٥٥) وَلَقَدْ أَرَيْنَاهُ

أي لفرعون.

﴿وَلَقَدْ أَرَيْنَاهُ أَيَّا تَنَا كُلُّهَا فَكَذَّبَ وَأَلْبَى﴾ (٥٦) قالَ أَجْئَنَا تُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَا مُوسَى  
﴿فَنَأْتَيْنَاهُ بِسِحْرِ مِثْلِهِ فَأَجْعَلْنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَا نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنْتَ مَكَانًا سُوَى﴾ (٥٧)  
قالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّيَّةِ وَأَنْ يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحَى﴾ (٥٩) فَتَوَلَّ فَرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدُهُ ثُمَّ أَتَى﴾ (٦٠)  
قالَ لَهُمْ مُوسَى وَيُلْكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتُكُمْ بِعِذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَى﴾ (٦١)

ألم يلفت نظركم في هذه الآيات شيء ليس من طبيعة فرعون؟ ! قتل الإنسان عند فرعون لا يكلفه إلا كلمة، فلما لم يقل لمن حوله اقتلوه، انتهى الأمر، لما جعل فرعون موسى نداً له، نعمل مناظرة، نجمع الناس، نحتكم إلى الناس، نأتيك بسحر مثله، هذا هو الجواب، لا إله إلا الله، من الذي أليس هذا النبي الكريم ثوب المهابة وجعل فرعون يعامله كذلك، لا كمواطن عنده، لما لم يقتلها؟ ! لما يجمع الناس لمناظرة بينه وبينهم، لما يقول له ستأتيك بسحر مثله، هذه أول ملاحظة. يعني كلمة الحق لا تقطع رزقاً ولا تقرب أجلاً، وإذا خفت من الله خافك كل شيء، من هاب الله هابه كل شيء، ومن لم يهاب الله أهابه الله من كل شيء، يخاف من كل شيء.

﴿فَتَنَازَعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ وَأَسْرَوْا النَّجْوَى﴾ (٦٢) قَالُوا إِنَّ هَذَا نَسَاحَرَانِ يُرِيدَانِ أَنْ يُخْرِجَاكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُتَنَّى﴾ (٦٣)

أي طريقة متنى هو عليها فرعون؟ الكذب، لكن ما في إنسان إلا ويتحدث بالمثل، حتى ولو كان فرعون، فالعبرة لا بما يقول الإنسان، العبرة بعمله.

لذلك الشيء الثابت الآن أن الناس لا يقيمون بأقوالهم أبداً، ولا قيمة لأقوالهم، لأن كل الناس يستطيعون التحدث عن المثل العليا ولكنهم لا يطبقونها لهذا كان النبي الواحد بمثراه الخلقي أبلغ في التأثير من آلاف الكتاب الذين ملئوا بالحكمة بطون المجلدات، تحدثوا عن المثل العالية ولم يطبقوها ولم يعيشوها.

لذلك أعظم شيء في حياة النبي هو مبلغ، أمره الله أن يبلغ الناس، ومبين لكن مهمته العظيمة فيما أرى ليست في التبليغ، ولا في التبيين، ولكنها في القدوة والأسوة، أذاقه الله مرارة الفقر، كان إذا دخل بيته يقول هل عندكم من شيء نأكله؟ فإذا قالوا لا، يقول فإني صائم.  
في بيت من بيوت المسلمين الآن ما في جبني، كأس شاي.

يدخل النبي إلى بيته ليس في بيته شيء يأكله، يقول فإني صائم، ولما فتح الله عليه البلاد، ودخل الناس في دين الله أفواجاً صار غنياً، سأله رجل لمن هذا الوادي؟ قال هو لك، قال أتهزئ بي قال لا والله هو لك، قال أشهد أنك تعطي عطاءً من لا يخشى الفقر في الفقر وقف الموقف الكامل، وفي الغنى وقف الموقف الكامل طيب بالقهر، حينما ذهب إلى الطائف.  
إذا واحد منكم له مكانة اجتماعية، وقال له شخص بالمفرد أنت بحس حاله انهان، إذا ما قال له أنت سيدِي ما ينحيط.

طيب النبي ضرب بالطائف، وكذب، واستهزئ به وبدعوته وسار الدم من قدميه، ماذا قال؟ قال: ربِّي إن لم يكن بكَ غضب على فلا أبالي ولك العتبة حتى ترضى لكن عافيتَكَ أوسع لي، جاءه ملك الجبال قال يا محمد لو شئت لأطبقت عليهم الأخشبين، قال لا يا أخي اللهم أهدِي قومي فإنهم لا يعلمون لعل الله يخرج من أصلابهم من يوحده.

لما ذاق القهر أسلم إلى الله عز وجل، ولما انتصر، مكة المكرمة عادته عشرين عاماً، أخرجه انتمرت على قتله، حاربته ثلاث مرات، نكلت بأصحابه أشد التكيل، دخلها فاتحاً، كيف دخلها؟ قال كانت ذوأبٍت عمامته تلامس عنق بعيره، شكرَ الله وتواضعَ فلما قالوا له ما أنت فاعلْ بنا، بإمكانه بكلمة من شفتيه أن يبيدهم جميعاً عشرة آلاف سيف متوجه تأتمر بأمره، قالوا أخ كريم وابن أخ كريم قال: أذهبوا فأنتم الطلقاء.

أذاقه الفقر فصبر، إني صائم، أذاقه الغنى، قال هو لك طيب أذاقه القهر، إن لن يكن بك غضب على فلا أبالي، أذاقه النصر قال أذهبوا فأنتم الطلقاء، أذاقه موت الولد، قال إن العين لتدمع وإن القلب ليخشى، ولا نقول إلا ما يرضي الرب، وإن عليك يا إبراهيم لمحزونون.

من يتحمل منكم أن يقال عن زوجته زانية ! حديث الإفك اتهمت السيدة عائشة بالزنى، ولحكمة أرادها الله عز وجل، تأخر الوحي شهراً بأكمله، لا في معه دليل إثبات ولا دليل نفي، والمدينة تلغط بهذا الموضوع، وهي أم المؤمنين، وهي السيدة المصونة الحسان، العفيف، الطاهر، يتكلمون عنها، صبر، فلما نزلت التبرئة، قال لها أبوها سيدنا الصديق: قومي لرسول الله فاشكريه

قالت والله لا أقوم إلا الله، النبي تبسم قال: عرفت الحق لأهله، ما تألم منها، طيب أذاقه مشكلة داخلية ساحقة.

مرة إحدى زوجاته السيدة عائشة، جاءها طبق من ضرتها صفيه أمسكت الطبق ورمي به أرضاً وكسرته، أصابتها الغيرة النبي عليه الصلاة والسلام في يخلع رقبتها كان، جمع أشتات الطبق وقال غضبت أمكم غضبت أمكم، علمك الحلم بالبيت طول بالك، قد تكون مقهورة الزوجة متضايقه، لا تكون أنت قاسي، قال، غضبت أمكم، غضبت أمكم.

أختار موقع في بدر اللهم صلي عليه، جاء صحابي يكاد يذوب أبداً معه، قال له هذا الموقع يا رسول الله وهي أواه الله إليك، ألم هو الرأي والمشورة، قال هو الرأي والمشورة، قال ليس بموضع، هذا الصحابي تجراً وأنتقده، النبي ما قال شيئاً أعطى أمر لينتقل الجيش إلى الموقع الجديد، وتلقى هذه النصيحة برحابة صدر وقلب كبير وعلمنا كيف نصغي لمن ينصحنا، وعلمنا كيف نشاور من حولنا وكيف لا تأخذنا العزة بالخطأ، كان لنا قدوة.

فأنا الذي أراه وهذا رأي شخصي، أن مهمة القدوة أخطر بكثير من مهمة التبليغ، أي إنسان يبلغك الحق، أما الذي يشدك للحق ليس إنسان طليق اللسان، لا إنسان يطبق في سلوكه ما يقوله في لسانه الآن نحنا لا نحتاج إلى خطباء فصحاء لا، بدننا مسلم حقيقي، بدننا مسلم أمين صادق إذا قال فعل، بدننا مسلم ورع عفيف، بدننا مسلم ما في عنده ازدواجية أبداً، ما في مسافة بين أقواله وأفعاله، هذا الذي يشدني إليه، فمهمة القدوة والمثل الأعلى، هذه المهمة أبلغ بكثير من مهمة التبليغ فالنبي عليه الصلاة والسلام، كان مبلغ عن ربه.

﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بِلَغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعُلْ فَمَا بَلَغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾

(سورة المائدة: ٦٧)

وقال:

﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ (٢١)

(سورة الأحزاب: ٢١)

فنحن في عنا مشكلة أن معرفة سنة النبي العملية، يعني سيرته فرض عين على كل مسلم، الدليل هذه الآية، كيف يكون النبي أسوة لك في بيتك، مع زوجتك، مع أولادك، مع أصحابك، مع جيرانك مع أصدقائك، في حربك، في سلمك، مع أعدائك، كيف يكون النبي أسوة لك إن لم تعرف ماذا فعل، وكيف تحرك وتصرف، إذاً معرفة سنة النبي القولية والعملية، القولية الدليل عليها.

﴿وَمَا أَتَكُمُ الرَّسُولُ فَخَذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾

(سورة الحشر: ٧)

والعملية:

﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أَسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ (٢١)

(سورة الأحزاب: ٢١)

أحياناً إنسان يدعى شيء فوق مقامه، بقلck المؤمن ذو بصيرة حادة يكشف حقائق الأمور، إلى حد ما، يعلم ما في النقوس، لا ليس صحيحاً، لأن النبي عليه الصلاة والسلام جاءه وفده وطلب منه سبعين قارئ قرآن ليعلموا قومهم، فلما أخذوا هؤلاء قتلواهم في الطريق، لما لم يعلم؟ هذا هو البشر، لا يعلم إلا أن يعلمه الله، لا تدعى ما ليس لك، لا يعلم النبي ولا أي إنسان آخر، إلا إذا أعلمه الله إذا ما أعلمه الإنسان ضعيف، رحم الله عبد عرف حده فوقف عنده، أنا أقول لكم ثلات آيات.

الآية الأولى:

﴿قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ (١٣)

(سورة الزمر: ١٣)

فأي إنسان يقترف أي معاشي ولا يخاف الله عز وجل ليس متبعاً لرسول الله، هي وحده.  
الثانية قل:

﴿وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ﴾

(سورة الأعجم: ٥٠)

وكل إنسان يقول لك سيكون معك كذا وكذا، هذا علم للغيب، النبي عليه الصلاة والسلام لا يعلم الغيب، فلأن لا يعلم أحد بعده من باب أولى، الله سبحانه وتعالى يقول:

﴿قُلْ لَا أَمِلُكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًا﴾

(سورة الأعراف: ١٨٨)

النبي الكريم على مقامه العظيم لا يملك النفع والضر، ولا يعلم الغيب ويختلف إن عصى ربه عذاب يوم عظيم، هذا مقام سيد الأنبياء، فهل هناك بعد النبي مثل يفوقه في هذا، طيب هذا الذي يقول خضت البحر الذي وقف بساحله الأنبياء هذا كلام غير مقبول هذا كلام مرفوض، هذه شطحات لا نرضى بها ولا نقبل بها، مقام النبوة أعلى مقام، هذا هو مقام النبوة.

﴿قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ (١٣)

قل:

﴿وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ﴾

﴿وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَنَّيَ السُّوءُ﴾

(سورة الأعراف: ١٨٨)

الآية الثالثة:

﴿قُلْ لَا أَمِلُكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًا﴾

يا فاطمة بنت محمد يا عباس عم رسول الله أنقذنا نفسكم من النار أنا لا أغني عنكم من الله شيئاً  
لا يأتيني الناس بأعمالهم وتأتوني بآنسابكم من يبطئ به عمله لم يسرع به نسبه.  
شيء ثانٍ.

اللهم اخْرِجْنِي مِنْ هَذِهِ الْأَرْضِ إِنِّي لَا أُحِبُّ الظُّلْمَ وَلَا أُحِبُّ الْمُظْلَمَ  
ألاحتظ أنه أخ كريم يحاول يأخذ فتوى من شيء عالم، هو يراه هيئ أمام مسجد بقالك أخذنا فتوى  
الحمد لله برفيقه صارت ليست برفقتي أسمعوا الجواب يا أخوان، لو استصررت فتوى من رسول  
الله، لو أن النبي بفمه الشريف أفتى لك ولم تكن محقاً لا تتجو من عذاب الله.

لعل أحدهم أحسن بحجه من الآخر، فإذا قضيت له بشيء فإنما أقضى له بقطعة من النار.  
أعرف حجمك، النبي أعظم إنسان على الإطلاق، ومع ذلك لو أخذت من فمه الشريف حكماً  
لصالحك ولم تكن محقاً، لا تتجو من عذاب الله، بالتعبير الدارج علاقتك مع الله، الله كاشف، علیم،  
سميع بصير.

في رجل استقرض ثلاثة ألف ليرة، عنده مزرعة جيدة، ما أحد دينه، عرضها على شخص أنا  
أطوبها لك على أن تقرضني هذا المبلغ، فإذا ردتها لك تعدها إلي، قال له ما في مانع، أعطاه  
ثلاثة ألف، وذاك الرجل تملك المزرعة، والمزرعة غالبة ومريبة، فيها مسبح، فيها فيلة،  
أشجار مثمرة، بعد سنتين ثلاثة تمكنت المفترض من تجميع المبلغ، جاءه وقال هذا المبلغ، رد لي  
المزرعة قال له لا كل واحد معه حقه، أصابه الهم والغم حتى ألمت به جلطة أودت بحياته من  
شدة الألم، قبل أن يموت أوصى ابنه الأكبر بيته بالمهاجرين كان، وخصمه له دكان، أعتقد  
بالقصاص خصمه، قال له مشي الجنازة من المهاجرين إلى القصاص، وتوقف الجنازة أمام الدكان،  
وتدخل أمام الناس، وتسلمه هذه الرسالة، ابنه فعل الوصية مشي الجنازة من المهاجرين إلى  
القصاص أمام دكان الخصم، وقف الجنازة، خرج ابنه من المشيعين معه رسالة كبيرة بظرف  
مختوم قدماها للذي أغتصب هذه المزرعة، ماذا كتب فيها؟ قال له المظلوم إنني ذاهب إلى دار  
الحق، والله سبحانه وتعالى هو الحكم بيننا، وإن كنت بطلاً لا تلحق بي.

إذا واحد خاف من الله، القضية ما في معها مزح، في قبر في حفرة سوداء مظلمة، أنا بعرف  
رجل من أغنى الناس، توفي في أيام مطيرا بعض الأسقية مفتوحة على القبر، بلغوا ابنه أن في  
القبر في سيارات مي سوده، قال لهم شو بدننا نساوي ادفنوه خلصونا، دفنوه يعني من بيت لا  
يوصف، إلى هذا القبر بقلي مدير معمله بقيت أسبوع ما أكول هون معلمي وضعوه !! هذا مصير  
الإنسان لذلك الإنسان العاقل يجهد أن يجعل هذا القبر باستقامته وعمله الصالح روضة من رياض  
الجنة، والمغادرة سريعة.

طلع واحد من كبار التجار في الحرية على بيته في بقين من شيء أسبوعين ثلاثة، دق لأبيه  
تلفون لقي ما في حرارة بالخط، قال له هات التلفون لمحل ثاني لعله في وصلة ثانية، راح ليجب  
أبيه، جاء وجده خالص، ثلاثة ثانية، غادر الدنيا بثلاثين ثانية، ماله بصفي حساباته مع ربه.  
فلذلك النبي الكريم أكبر مهمة له هي القدوة لا التبليغ، بلغنا أما القدوة فعل بسلوكه ما قال بلسانه.

**والحمد لله رب العالمين**

بسم الله الرحمن الرحيم، والحمد لله رب العالمين والصلوة والسلام على سيدنا محمد الصادق  
الوعد الأمين، اللهم أعطنا ولا تحرمنا، وأكرمن ولا تهنا وأثرنا ولا تؤثر علينا، وأرضنا وأرض  
عنا، وصلى الله على سيدنا محمد النبي الأمي وعلى آله وصحبه أجمعين وسلم.

**والحمد لله رب العالمين**